المحاضرة 09

الأنثروبولوجية الحديثة: ما بعد الاستعمار

لقد حاولت الأنثربولوجيا التحرر من التمركز الذاتي للثقافة الأوربية، ومحاولة إيضاح الخلط بين مفهومي التنوير والاستعمار، حيث استغلت ذريعة نشر الأنوار والتبشير بالحضارة من أجل اكتساح واستعمار والسيطرة على العديد من المجتمعات والثقافات الأخرى أو " الغيرية" ، كما تم أبادت العديد من الأعراق بثقافاتها بحجة أنها همجية وبعيدة كلية عن التمدن الغربي، وفي مستنقع التخريب وصناعة الاستعمار لمأساة الكثير من الشعوب، تنادت أصوات من تيارات أنتروبولوجية، تهاجم منظومة الاستعمار وتخدش العلاقة غير الشرعية بين الأنثروبولوجيا والاستعمار ، ودافعت عن المجتمعات والمكونات الثقافية من غير الأوربية، خصوصا الشعوب المستعمرة، ودعت إلى دراستها من منظور الخصوصية والكينونة الذاتية لهذه الثقافات وليس من منظور المركزية الأوربية المتعالية، وأضحت العديد من البحوث على أن ما سمي بالمجتمع البدائي ليس هو ذلك المجتمع الذي صورته الأنتروبولوجيا في البدايات الأولى، إنها مجتمعات تمتلك ثقافة يحكمها منطق داخلي أكثر تعقيدا إذا ما قارناه بالمجتمعات المعاصرة، كما أن ثقافات الشعوب المستعمرة لم تكن يوما كما وصفوها أنها ثقافة متخلفة وميتة لا تقوى على صنع الحضارة، بل كانت ثقافات وظيفية في تلك المجتمعات في عملية ترابط وتبادل بين مختلف الأنساق.

لقد كان الفضل الكبير للأنثروبولوجي ميلفيل هرسكوفيتز في صكه لمصطلح " النسبية الثقافية"، وقد كان لهذا المصطلح أثر كبير لاحقا، فتطورت الرؤى ليتولد اتجاه في الأنثروبولوجيا، قام على نسبية الثقافة كمنطلق، وعلى نقد الاتجاهات الأنثروبولوجية القائمة كالتطورية والوظيفية خصوصا، فيرى هيرسكوفيتز أنه من غير المنطقي والعلمي أن تطلق الأحكام وتبنى التصنيفات تجاه الثقافات من قبل البعض، فوصفت بعض الثقافات بالتخلف، والأخرى بالبساطة، وأحيانا بالخاملة، تارة بالبدائية، وكلها أحكام وتصنيفات مبنية وفق نزعة تمركز ذاتية أوربية استعلائية، وهذه القيم والتصنيفات تجاه ثقافات الآخر غير الأوربي، استغلت من قبل الأجهزة الاستعمارية لشرعنة فعلها الاستعماري تحت غطاء نشر الأنوار والحضارة. ولكن بالمقابل والأسلم أن لكل ثقافة خصائصها ومنطقها الداخلي الذي يحكمها، ولها وظيفة بناء وصياغة شخصية الفرد، و صياغة ووضع محددات الشخصية الجماعية أو المجتمعية لكل جماعة بشرية، هذه المجتمعات بلا شك لها مساراتها وتجاربها الخاصة في التاريخ، ولها اسهاماتها الحضارية في كوكبنا على اختلاف الأعراق والأجناس.

ويرى ادوارد سعيد ان الكتابة الانثربولوجيه، كانت لا تذكر أي عنصر إيجابي : ثقافي، او سياسي، أو اجتماعي تتضمنه ثقافة الآخر، مما يترتب على ذلك ضرورة رعاية هذا الآخر. وبالطبع الغرض هو تبرير الاستعمار وتدعيم الهيمنة

الغربية على الشعوب، ولا يزال يختفى وراء أيديولوجيات التنمية والتحضر التي تدعو إليها بادعاء تطويرها وتقديمها. هكذا يشير سعيد إلى السياق السياسي الذي تتم على ضوئه الكتابات الغربية عن الآخر. يضاف إلى ذلك أن تجاهل إيجابية الشعوب غير الغربية على هذا النحو يخفي وراءه نزعة أو شعورا قويا بالاعتداد والنمو والتمركز حول الذات الثقافية الغربية، هذا الشعور الذي كان يختفي كذلك وراء صياغة النظريات الكبرى بوجه عام بمختلف مناحيها: الاجتماعية والنفسية أو العقلية، والاقتصادية والسياسية، هذه النظريات التي سادت النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فمعظم هذه النظريات، إن لم يكن جميعها، رسمت عدد من المراحل المتتالية المتمايزة المختلفة التي يمر بها المجتمع البشري منذ المرحلة الأولى التي كان يعيشها، وأن كل مرحلة تكون أكثر تطورا وتقدما عن المرحلة التي تسبقها. وقد كانت من الأسباب الرئيسية لفساد هذه النظريات النزعة الذاتية للثقافة الغربية والتمركز حولها. فكانت بعيدة كلية عن الموضوعية والمنطق والحقيقة مما رتب على ذلك سقوطها.[1]

لقد أفلحت عمليات النقد التي وجهت للطروحات الأنثروبولوجية الكلاسيكية خصوصا في بعدها التطوري والوظيفي، في تهذيب الرؤى التي كانت تشكل ظهيرا للمنظومة الاستعمارية، كما تم تقديم قراءات جديدة من خلال التركيز على انتاج وكتابة النص الاثنوغرافي، خصوصا ما تضمنه أسلوب الاختبار أو التجريب الذي جاء به خلال منتصف الثمانينبات من القر ن العشرين كل من ماركوس وفيشر. وهو ما أتاح انزياح العديد من المحددات المنهجية التي كانت تصبغ البحث بصبغة اثنوغرافية، كدراسة مجتمع بعيد جغرافيا غريب ثقافيا مقارنة بثقافة الباحث وهو ما أدى الى تغيير ميدان البحث من المجتمعات المسماة غرائبية الى البيئات الصناعية، والعوالم المعاصرة المتداخلة ثقافيا واجتماعية واقتصاديا تحت المعطيات الحتمية للعولمة.

لقد ظهرت أنتروبولوجيات متمايزة نوعا ما من حيث الموضوعات وان اتحدت من ناحية المنهج والأدوات، خصوصا لما أصبح ممارسي البحث الأنثروبولوجي من أبناء المجتمعات المحلية، وأصبح أنثروبولوجيو بلدان المسماة بالعالم الثالث يطرحون جملة من القضايا والموضوعات البحثية النابعة من مشكلات أبناء المجتمع المحلي، فظهرت موضوعات بحثية جديدة كالعلاقات الاجتماعية وسياسات التنمية، مشكلات الفقر ، التغير الاجتماعي والثقافي في ظل الثورة الرقمية، مشكلات العنف، الاستقرار والسلم الاجتماعي.

لقد كانت معظم الدراسات الأنثروبولوجية قد قام بها أشخاص من خارج المجتمعات المدروسة، أغلبيتهم من الغربيين، ولم تكن ظاهرة الأنثروبولوجيين الأهليين Native معروفة على الاطلاق، ولكن مع انخراط أعداد من الباحثين من أبناء هذه المناطق ممن تخصصوا في الدراسات الأنثروبولوجية، أصبح ما يقدمونه موضع اهتمام ويشكل رافدا ربما مختلفا عن دراسات " الخارجيين" ن ورغم ما ذكر من معيقات منهجية للباحث المحلي عند قيامه بدراسة مجتمعه، غير أن هذه الاستدراكات محدودة التأثير، فالباحث المحلي على العكس من ذلك لمعرفته لغة المجتمع والثقافة التي يقوم على دراستها، ولمعرفته بالخلفيات التاريخية، والمعرفة العامة بمجتمعه من ناحية، ومعرفته- بسبب شروط تأهيله العلمي-

[1] – السيد حامد: الباحث المحلي والباحث الأجنبي، في كتاب قضايا منهجية معاصرة في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، القاهرة.

بثقافة المجتمعات الأخرى، ربما كان أقدر على القيام بالعديد من المقارنات، وكذلك تقديم العديد من التبصرات في دراسته.2

ففي الاتجاه النقدي في الأنثروبولوجيا طروحات هادفة لإعطاء فرصة للشعوب من غير الأوربية لإيجاد جهاز مفاهيمي أنتروبولوجي، وتوليد نماذج نظرية نابعة من طبيعة بيانات المشكلات المحلية المدروسة، بعيدا عن الإسقاط القسري للسرديات والنظريات الأنتروبولوجية الكلاسيكية عند دراسة وتحليل مشكلات المجتمعات غير الأوربية، ومن هنا ظهرت أنتروبولوجيات عديدة كأنثروبولوجيا العربية، أنتروبولوجيا البرازيل، أنتروبولوجيا الهند....

انها مرحلة جديدة من تاريخ الأنثروبولوجيا ودعوة لأن يشتغل الباحثون المحليون من أبناء المجتمعات المسماة نامية بمشكلات مجتمعاتهم دراسة وبحثا، بعيدا عن الأنثروبولوجيا الموجهة وفق الإرادة والإدارة الاستعمارية التي كانت سائدة من قبل، وبعيدا عن الطروحات الحتمية، كحتميات الماركسية، أو حتمية الثقافة لدى التطورية والوظيفية. وكان هذا قد فنده أصحاب النسبية الثقافية. فشنوا حملة من التحليل والنقد على الترسانة المفاهيمية والقوالب النظرية المنمطة النابعة من المنظومة الفكرية للمركزية الغربية في نظرتها للثقافات الأخرى.

[2]– أبوبكر باقادر وآخر: الأنثروبولوجيا في الوطن العربي، دار الفكر، دمشق، 2012.